مَوْسُوعَةُ

# فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

# سُورَةُ الأَعْلَى


أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# موسوعة فوائد

# القرآن الزكية

## سورة الأعلى

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

# فوائد سورة الأعلى

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة الأعلى بالأمر بتنزيهه عن جميع ما لا يليق بجلاله عَزَّ في علاه. فقال ربنا جَلَّ جلاله ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ نزه ربك الأعلى التنزيه الذي يليق بعزته، ووحدانيته، وعظيم سلطانه تبارك وتعالى. صاحب العلو والعظمة والمكانة، فنزه ربك جَلَّ جلاله عن جميع أنواع الشرك والنقائص.

والتسبيح يشمل: قول: سبحان ربي الأعلى، وهو قول الجمهور. والثاني: التعظيم، والثالث: صَلِّ بأمر ربك. وكلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما. والرابع: نزِّه ربك عن السوء، قاله الزجاج. والخامس: نزه ربك: أي: ذِكرك إياه. بأن تذكره وأنت مُعَظِّم له، خاشع له. ذكره الثعلبي[١] وجميع هذا المعاني والدلالات متظافرة في دلالة التسبيح، وجميعها مطلوبة من جميع العباد.

وهذا الأمر يقتضي الوجوب. ويُعَلِّمُ الله تعالى به عباده كيف يعظمونه، ويُجلونه ويقدسونه، وكيف يتأدبون مع ربهم جَلَّ جلاله. ثم ذكر جَلَّ شأنه أن من مقتضيات ذلك أن ربكم أيها العباد هو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ أي: أن ربكم هو الذي خلق الخلق أجمعين، وعَدَّل كل مخلوق على أكمل التسوية، وأحسن الهيئة اللائقة به. ومن ذلك الخلق أنت أيها الإنسان، فقد صنعك في أحسن تقويم، بما مَكَّنك به من السمع والبصر، والعقل، وغيرها من متطلبات التسوية. وكذلك ما هو متعلق باعتدال الهيئة التي هي في أحسن تقويم.

وكذلك في هذا التوجيه الكريم ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ لفت انتباه الإنسان إلى أن يتأمل عظمة الله تعالى في حُسن ما خلق من المخلوقات، فعلى كثرتها وتعددها إلا أنك ترى كل مخلوق في أحسن ما يكون. فتأمل في السماء وجمالها، والأرض والجبال وحسنها، والزروع والدواب، وغيرها من مفردات الخلق، فإنك تجدها في أحسن وأجمل وأتقن ما يكون. مما يستثير عند الإنسان تسبيح وتنزيه الخالق العظيم تبارك وتعالى.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢٢٧-٢٢٨)

ليعود الإنسان بعد تأمله منزهاً ومعظماً وموحداً لربه جَلَّ جلاله. وأن من مقتضيات ذلك هو عبادته وحده لا شريك له. وطاعته عَزَّ وجل، واتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج البيان الرباني بالْمُخَاطَبين إلى تأمل عظيم تقديره لما خلق. فقال جَلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ فإن ربكم هو الذي قدر كل شيء، تقديراً يناسبه، ومن ذلك الإنسان، الذي ميزه بالعقل، وأرشده للرشد، وعَرَّفَه بالضلال. فتضمنت الآية الكريمة دلالتين عظيمتين: الأولى: أن الله تعالى هو الذي ﴿ قَدَّرَ ﴾ من حيث الخلق، ومن حيث الهيئة، ومن حيث الوقت والزمن، ومن حيث المعيشة، ومن حيث الأجل. والثانية: أن الله تعالى هو الذي بعد أن قدر ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ بأن أرشد وأوضح الرشاد من الضلال، والحق من الباطل. فألهم الإنسان الفجور والتقوى. كما قال الله تعالى في سورة: الشمس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. فعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره.

وكذلك فإن مَن تأمل في البهائم والدواب والطيور، يرى هدايتها في بحثها عن مصالحها، واتقائها ما يؤذيها. وأن منها مَن يسير على الأرض، ومنها ما يطير ويُحلق في السماء، فتطير إلى أكنانها، وتبحث عن رزقها، وتتقي ما يؤذيها، وتدافع عن نفسها. فإن الذي هداها هو الله سبحانه وتعالى، الهادي الذي قَدَّر كل شيء في أحسن تقدير. ومن ذلك أن جعل لليل قدراً محدداً، وللنهار كذلك قدراً محدداً، بل لكل جزء منهما مقداراً محدداً ومعيناً. كالضحى، والظهيرة، والعصر، والغروب.

وفي كل شيء تجده مُقدَّر تقديراً دقيقاً. بل بعضها بقدر حاجة الإنسان، فكلما زادت حاجة الإنسان له زاد وكثر، فتأمل المزروعات، وتأمل وجود الماء وكثرته، وتأمل من المعادن الحديد، فهو أكثر من الذهب، لأن الحاجة له أكثر، وتأمل الهواء لا يحجبه أحد عن أحد من سعته، لحاجة الإنسان الدائمة له. مما يبين عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وعظمة تقديره العزيز الحكيم، الذي كلما تأمل الإنسان وتدبر في مخلوقاته سبح ربه الأعلى منزهاً ومعظماً له على عظيم التقدير والهداية. مما يبين أن مجالات التأمل والتفكير لا حدود لها في هذا الكون العظيم. ولكن الله عَزَّ في علاه هدى الإنسان للتأمل والتفكير، حتى يتعظ، ويُعظِّم ربه جَلَّ جلاله ويوحده، ولا يشرك به شيئاً.

ثم تدرج البيان الكريم في تسلسل وتشويق إلى شأن الإنبات، فقال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴾ فربكم الأعلى هو الذي أخرج من الأرض ما ترعاه الأنعام من صنوف وأنواع الحشائش. وخص هنا المرعى، بما يثير العلاقة المخصوصة بين أنعامكم وبين طعامها، مما ترعاه من نبات الأرض. كما أسند سبحانه وتعالى

الإخراج له جَلَّ جلاله ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴾ لإثارة أنه هو المدبر والمقدر، والذي هدى الأنعام لغذائها، وتتبعه بالرعي.

ثم يُظهر تبارك وتعالى كمال تدبيره فيما أنبت من الحشائش، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ فجعل المرعى ﴿ غُثَآءً ﴾ أي: جافاً، يبساً ﴿ أَحۡوَىٰ ﴾ أسوداً يضرب إلى الخضرة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ أَحۡوَىٰ ﴾: أنه مأخوذ من الحوة، وهي سواد يضرب إلى الخضرة[١] وقال الفراء رحمه الله تعالى: الأحوى: الذي قد اسود من الْقِدَم، والعتق. ويكون أيضاً، أخرج المرعى أحوى: أسود من الخضرة[٢] قال ابن زيد رحمه الله تعالى: كان بقلاً ونباتاً أخضر، ثم هاج فيبس، فصار ﴿ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ تذهب به الريح والسيول[٣] وفي هذا الإنعام من الله تعالى عبرة وعظة أيضاً، قال عنها ابن عاشور رحمه الله تعالى: للإشارة إلى أن مدة نظارة الحياة للأشياء تُشبه المدة القصيرة[٤] فإن مآل كل نَضَارة إلى الزوال، مهما كان نفعها. وأن الذي أمات هذه الحشائش الخضراء هو الذي يعيدها في تتابع وتلاحق، وبالتالي كما أعادها من غير عجز فإنه يعيد الإنسان بعد موته كما كان عليه في حياته. خاصة إذا تأملنا أن مدار السورة الكريمة قائم على الخلق والتقدير والهدى، والإخراج. مما يبين عظيم البيان في كتاب الله تعالى، وقوة مقاصده وعظيم مرامي غاياته وأهدافه.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى إظهار آيات الله تعالى في تعليم وحفظ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم هبة من عنده عَزَّ في علاه. فقال جَلَّ جلاله ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ سنمكنك من حفظ ما ننزله عليك من القرآن فلا تنسى منه شيئاً أبداً. قال مقاتل رحمه الله تعالى: سنعلمك القرآن، ونجمعه في قلبك، فلا تنساه أبداً[٥] وفي هذا مظهر من مظاهر الإعجاز في العلم، وآية بحفظ القرآن الكريم، بحيث لا يُشْكِلُ عليه شيء أبداً صلى الله عليه وسلم. مما يفيد ويبين أن هذا مظهر من مظاهر آيات الله تعالى وبراهينه وحججه. فإن الله عَزَّ وجل هو المتكفل بحفظ النبي عليه الصلاة والسلام للقرآن العظيم. وأنه الحافظ لكتابه تبارك وتعالى. وبما يبين أن الله تعالى هو المعين على تحصيل العلم، ومنه حفظ القرآن، وما يفتح به على أهل القرآن. وكذلك ما يفتح على الناس من العلم هو الخالق الكريم تبارك وتعالى. فليسأل المؤمن ربه عَزَّ في علاه.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤٢٣/٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٩/٨)

(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٤/٢٤)

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦١٠/١٢)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٩/٨)

ثم استثنى تبارك وتعالى ما يشاء، مما اقتضته حكمته تبارك وتعالى، فقال جَلَّ جلاله ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ إلا أن يشاء الله ما تقتضي حكمته سبحانه وتعالى من عدم الحفظ. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه[١] وذكر العلماء لهذا النسيان ثلاثة أوجه: أحدها: إلا ما شاء الله تعالى أن ينسخه فتنساه، قاله الحسن وقتادة. والثاني: إلا ما شاء الله تعالى أن تنساه ثم تذكره بعد، حكاه الزجاج. والثالث: أنه استثناء لا يقع. قال الفراء: لم يشأ أن ينسى شيئاً[٢] وهي أوجه تتوافق. وتُثبت تقرير حفظ القرآن في صدر الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ينساه أبداً صلى الله عليه وسلم إلا ما اقتضته حكمته تبارك وتعالى من الرفع والنسخ.

ثم يخبر تبارك وتعالى بكمال علمه ودقته، فقال جَلَّ جلاله ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ فإن ربكم يعلم ما يجهر به العباد ويعلنونه من الأقوال والأفعال ﴿ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ وما يَتَخَفَّون ويسرون به عن غيرهم من الأفعال والأقوال، وما تكنه الضمائر في الصدور، فإنه لا يخفى على ربكم منه شيء أبداً، فالظاهر والباطن كله عند ربكم عَزَّ وجل متساويان. مما يفيد وجوب استحضار علم الله تعالى في السر والعلن. فإن في استحضارها ضبط لتصرفات المؤمن، في السر وفي العلن.

وهي قاعدة عظيمة في ضبط حياة الإنسان المؤمن في جميع تقلباته. فإن أراد التخفي بمعصية قال لنفسه ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ وإن أراد الامتناع عن واجب، قال في نفسه ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ وإن أصابه مكروه، أو خاف من أمر، دعا ربه وقال في نفسه ﴿ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ وإن رأى من غيره امتناعاً عن حق، وعظه بقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ وإن رأى من غيره اعتداء على حق، قال له ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ فهي واعظة للإنسان في كل حال من أحواله. فالعلم بها غنيمة ونعمة عظيمة من الله تعالى.

ثم يبشر الله تعالى بالمزيد من الهبات لرسوله صلى الله عليه وسلم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ نهديك ونوفقك للخير، ونيسر لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم جميع أمورك وشؤونك، لتشمل أموره الدعوية، وأمور الدين، وأمور الدنيا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نيسرك لأن تعمل خيراً. وعن ابن

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٣١٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢٢٩)

مسعود: للجنة، وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى، وهي الحنفية السمحة السهلة[١] فقد جمعت دلالتها جميع أنواع التيسير من أمور الخير في الدنيا، ثم الوصول إلى الجنة في الآخرة، فتتحقق لك السهولة والسماحة كلها. وبما يبين أن دين الله تعالى سهلاً ميسوراً، إذ لم يكن فيه شيء من العسر على من بلغه للناس عليه الصلاة والسلام. وبالتالي فليس فيه عسر على من تَبَلَّغ به، وعمل به. فليس في الدين من حرج. كما قال تعالى في سورة الحج ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فليس في الدين شيء من التضييق والصعوبة، بل جميع شرائع الدين ميسورة الأداء، وسهلة التطبيق ،والعمل بها.

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

وبعد بيان الله تعالى بما أكرم به نبيه ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من حفظ القرآن، وتثبيته في صدره، وتيسير الأمور له، يتجه البيان الكريم إلى الأمر بأن يعظ ويعلم الناس القرآن العظيم، وما شرع لهم من الدين. فقال جَلَّ في علاه ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ فذكر وعَلِّم وعظ الناس بدين الله تعالى وآياته وحججه حيث ينفع التذكير والوعظ لمن اتعظ به. بما يفيد أن هناك من سينتفع بالذكرى، وهناك من سيصد عنها. وبالتالي فطالما أن التذكرة لها نفع وجدوى فذكر الناس بها. سواء حصل المطلوب والمرغوب من الجميع أو لم يحصل إلا من بعضهم.

وقد أفاد فعل الأمر ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ الوجوب والمداومة والاستمرار وعدم التوقف. فلا تجعل أي سبب يوقفك عن التذكير ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ إن حصل لها قبول عند البعض، ولم يحصل لها عند البعض الآخر. قال الجرجاني رحمه الله تعالى: التذكير واجب، وإن لم ينفع. والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع[٢] وفي هذا بيان لحالة الناس تجاه المواعظ، فهناك من يقبل ويُقبِل على التذكرة، وهناك من لا ينتفع بها. وألا يجعل صدود من لم ينتفع بها سبب للتوقف. ولذلك ورد بعده مباشرة أنواع الناس في القبول والرفض. فقال الله تعالى

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٠)

عن النوع الأول: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أي: سينتفع بها من يخاف الله تعالى. مما يبين أثر الخشية من الله تعالى في قبول المواعظ، والطاعة والامتثال لله رب العالمين.

ثم ذكر تبارك وتعالى النوع الثاني: وهو والمضاد للنوع الأول، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ فإن الشقي في الدنيا والآخرة هو الذي يُعرِض ويصد عن الذكرى، ولا ينتفع بها. فمن لا يخشى الله تعالى تجده يتجنب الذكرى بالقرآن، ويبتعد عن طاعة الله تعالى، وهو الذي تحقق فيه الشقاء. إذ وصفه الله تعالى بالنتيجة والمآل الذي سيؤول إليه، وهو الشقاء. ثم وصف الله تبارك وتعالى المآل الذي سيؤول إليه هذا الأشقى بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أي: هو الذي يصطلي باشتعال النار عليه في الآخرة.

وقد أفاد معنى ﴿ يَصْلَى ﴾ الاحتراق، بمساس حرها، ودخوله فيها. وأما ﴿ ٱلنَّارَ ﴾ الموصوفة بأنها ﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ فذلك يعني أنها: العظمى. لأنها أعظم من نار الدنيا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ويعني: الكبرى: في شدة الحر والألم[١] قال القرطبي رحمه الله تعالى: وهي السفلى من أطباق النار، قاله الفراء. وعن الحسن: الكبرى: نار جهنم، والصغرى نار الدنيا[٢] بما يفيد شدة وهَول العذاب للأشقى، الذي أعرض عن الذكرى. اللهم إنا نسألك العفو والعافية، في الدنيا والآخرة، يا رب العالمين.

ثم قال عَزَّ وجل عن حال هذا الأشقى وهو في النار ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أي: لا يموت من الاحتراق بالنار فيرتاح منها، ولا تحصل له الحياة الطيبة التي تنفعه. بما يفيد التجدد فيها بالاحتراق والاصطلاء الدائم، ودوام الإحساس الذي لا ينقطع، ولا يتوقف.

ثم يعود البيان الكريم إلى الإعلام بحال الذي يخشى، وهم المنتفعون بالمواعظ، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قد فاز بالجنة والنجاة من النار من تزكى وتطهر من الشرك، وقام بما أمره الله تعالى به، فكان عمله زاكياً مقبولاً، بإخلاصه لربه تبارك وتعالى. مما يبين أهمية تزكية الاعتقاد والقول والعمل من كل ما نهى الله تعالى عنه، بتوحيد الله تعالى، والبعد عن الرياء.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣١٨/٢٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٠)

ومن بلاغة السياق أن استهل بيان حال المفلح من الفوز بحرف التحقيق ﴿ قَدْ ﴾ الذي أفاد تأكيد ما بعده من تحقق الفلاح. كما جمعت دلالة ﴿ أَفْلَحَ ﴾ الفوز بالجنة، وبكل خير، وكذلك النجاة من النار. لأن الفلاح يفيد كمال التحصيل من الإثابة والجزاء العظيم، فكيف بهذا الفوز والقائل هو الله سبحانه وتعالى؟ كما جمعت دلالة ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾ التطهر من كل شيء ليس على دين الله تعالى، فهو متطهر من الشرك والرياء، اعتقاداً وقولاً وعملاً. فأعماله خالصة لله تعالى، فيكون قد تزكى في نفسه، بصحة وسلامة عبادته لربه جَلَّ جلاله، وكذلك تزكى من الظلم، ومن المساوئ والرذائل الخلقية.

وهذا يُوضح ويبين للمؤمن أن من أعظم واجباته حتى ينال الفلاح والفوز العظيم أن يكون مخلصاً لله تعالى في عبادته، والتطهر من الرذائل، ومن كل ما يعارض ويُضاد التزكية في نفسه وكسبه وأخلاقه، وتعاملاته. وبما يبين أن دين الله تعالى هو دين النقاء والصفاء في كل شيء. فالمتزكي هو المتطهر من الكفر والمعاصي، في عبادته وتوحيده لربه لا شريك له. لأن حصول التزكية والتنقية من الذنوب يكون بتجريد المتابعة لله تعالى، عملاً وإخلاصاً. فمن تطهر من المعاصي، ولزم والتزم بعمل الصالحات من القول والعمل والاعتقاد فإنه قد تطهر، وزكى بنفسه، وارتقى.

ثم أكد تبارك وتعالى أمراً عظيماً من أمور التزكية، وهو ذكر الله تعالى، والمحافظة على الصلاة، إذ قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ أي: لهج قلبه ولسانه بذكر الله تعالى، من التسبيح، والحمد، والتهليل، والتكبير. ومؤدياً للصلاة في أوقاتها، وبشروطها وأركانها وواجباتها. فيكون هذا الذي أفلح قد ذكر ربه في قلبه وبلسانه، وظهر ذلك على أفعاله، وخاصة الصلاة. مما يبين أهمية الصلاة وفضلها وعظيم تطهيرها من الرياء، والسمعة. كما يدل ذلك على أثر الصلاة في تزكيتها للإنسان، وتطهيره. كما قال صلى الله عيه وسلم (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقي من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصولات الخمس، يمحو الله به الخطايا)[1] مما يبين أهمية تخصيص الصلاة من بين العبادات. خاصة وأن المؤمن يؤديها كل يوم خمس مرات.

ثم ينتقل البيان من الله سبحانه وتعالى إلى الذين لا ينتفعون بالذكرى، وتحذيرهم مما يصيب النفوس من استعجال ملذات الدنيا على الفوز بالآخرة، فقال عَزَّ وجل ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بل إن الذي عليه أكثر العباد هو الإيثار للدنيا العاجلة ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ بل تُقدِّمُون وتفضلون ﴿ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فتغريكم

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٢٨) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٦٦٧)

زينة الحياة الدنيا، فتقدمونها على الآخرة الآجلة، بينما الصحيح هو ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ فإن الآخرة هي الباقية، فإنها مُتَّصِفَة بأنها خير من الدنيا في جميع الأمور والأشياء، في لذائذها، وسعادتها، ورفاهيتها، ودوامها وبقائها، وعدم فنائها، وفي كل شأن. وزيادة على ذلك أنها ﴿وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ أي: باقية لا تزول ولا تنقضي ولا تنتهي، فإن الحياة فيها أبدية، فلا تتغير ولا تنتهي. فإنها سعادة دائمة، بينما الدنيا زائلة، فلا بقاء لها، وزائل عنها الإنسان. وبما يفيد أن على العاقل ألا يُؤثر الزائل على الباقي، فيترك الأبدي الباقي على حساب العجل الزائل.

وفي هذا التوجيه الكريم من الله رب العالمين تعليم للعباد بأسلوب المقارنة والمفاضلة. وبإظهار التفاضل بعد بيان حالة النفوس في الاستعجال الذي يجعلها تؤثر القليل الزائل على العظيم الباقي. فهو تحليل للنفوس، وتحليل لواقعها، وبيان لمستقبلها. ثم إرشادها لما يجب عليها في الاختيار والإيثار. فإنه التعليم والمنهجية الربانية التي تُعلم الإنسان كيف يفهم ويتعلم، وكيف يكون علمه وتعلمه، وكيف يُعَلِّم غيره. وكيف يختار ويُؤثر. فالحمد الله تعالى على كريم بيانه ووعظه وتعليمه وإرشاده.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن ما ذكره من سابق البيان موجود كذلك فيما سبق مما أنزل من الكتب الكريمة السابقة، فقال عَزّ وجل ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ إن هذا المذكور لكم موجود في الصحف الأولى ﴿ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ الذين هم من أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام. بما يفيد أن أصول هذا الدين كان كذلك فيما سبق، ومنها شريعة إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام. فعليكم بما أمرناكم ووجهناكم إليه أيها العباد.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الأعلى. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.